التحدى الحضارى الجديد بعد كامب ديفيد

د. نبيل راغب

لا شك أن مقررات كامب ديفيد تشكل نقطة انطلاق ايجابية واصيلة صوب مرحلة جديدة من التحدى الحضارى الذى يتمثل فى البناء الداخلى للامة ، والذى يبدأ ببناء الانسان المصرى وينتهى باعادة بناء المرافق الحيوية العامة من مسكن وتعليم وصحة وغذاء .. الخ فلابد من توافر شرط الاستقرار لكى يستمر البناء فى الارتفاع والنمو ، وهو الشرط الذى لم يتوافر قبل مرحلة كامب ديفيد حين سيطر التوتر والقلق وخيم شبح الحرب والدمار على الجميع . ولايمكن لاى تعمير حضارى أن يتم فى جو مرهق بهذا الشكل لدرجة أن المواطنين لا يعرفون ما الذى سوف يأتى به الغد ، فلم يكن الهدوء فى المنطقة سوى هدنة مسلحة يمكن أن تنفجر فى اية لحظة وتتحول الى حرب مدمرة .

أما فى مرحلة ما بعد كامب ديفيد فقد أصبح السلام ممكنا لاول مرة منذ ثلاثين سنة مضت من الحروب التى لم يحصل منها اى طرف على اى مغنم سوى ضياع آلاف الشباب وتدمير امكانات التعمير الحضارى . ولعل **الترهيب الذى لقيته مقررات كامب ديفيد على مستوى العالم المنحصر يرجع الى ان الوثيقة الاولى التى اطلق عليها اسم «اطار للسلام فى الشرق الاوسط» تنص لاول مرة فى تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى على الاعتراف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين ، كما تقضى بأن تكون لهم الفرصة لتقرير الكيفية التى يرغبونها لحكم انفسهم من خلال حكومة ذاتية تستمر لفترة انتقالية اقصاها خمس سنوات . وتنص الوثيقة ايضا** على عدم اقامة مستوطنات اسرائيلية جديدة فى المنطقة خلال المفاوضات حول اقامة الحكم الذاتى ، فى كل من الضفة الغربية وقطاع غزة . كما تتيح الوثيقة لممثلى الفلسطينيين الاشتراك فى المفاوضات الخاصة بالفترة التى ستعقب السنوات الخمس وبالتالى فيما يتعلق بمستقبلهم . وسيكون للممثلين الفلسطينيين المنتخبين فرصة متساوية للموافقة على الاتفاقية التى تنظم قواعد الوضع النهائى للمنطقة ، كما أن لهم حق الاعتراض على كل الاقتراحات التى لا تتفق مع أهدافهم القومية .

وسوف تجرى هذه المفاوضات على أساس جميع البنود والمبادىء الواردة فى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ والذى يدعو اسرائيل الى الانسحاب من الاراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧

أما الوثيقة الثانية التى اطلق عليها « اطار لابرام اتفاقية سلام بين مصر واسرائيل » فتنص على انسحاب اسرائيل من سيناء على مرحلتين :

الاولى تشكل انسحابا رئيسيا يتم فى فترة تتراوح بين ثلاثة وتسعة شهور بعد توقيع اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية التى يجب أن توقع فى غضون ثلاثة شهور . أما المرحلة الثانية فتشكل الانسحاب الاسرائيلى النهائى من سيناء فى فترة تتراوح بين ثلاثين وثلاثة أعوام بعد توقيع معاهدة السلام وقد الحق بمقررات كامب ديفيد نصا القرار ٢٤٢ والقرار ٣٣٨ اللذين اصدرهما مجلس الامن .

يترتب على ماسبق أن الذين يرفضون مقررات كامب ديفيد يرفضون فى الوقت نفسه التطور الحضارى للامة العربية التى عانت الامرين على مر ثلاثين عاما من الدمار وإراقة الدماء مما أجبرها على التخلف عن المسيرة الحضارية للعصر كله . هذا بالرغم من الامكانات الاقتصادية والبشرية والنفطية الهائلة التى تملكها ، لكن عدم توافر عنصر الاستقرار قضى على أية تطلعات حضارية فى حين أن العالم يسير الان بسرعة الصاروخ . لذلك ليس هناك اى معنى لموقف دول الرفض — أو دول الصمود والتصدى كما يحلو لها أن تسمى نفسها — سوى أنها تحاول أن تجعل من نفسها عقبة فى سبيل عودة الحضارة العربية لكى تأخذ مكانها تحت الشمس ، فهى بموقفها الغريب والمفرض هذا ترفض الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وتنكر عليه فرصته فى تقرير الكيفية التى يحكم بها نفسه حكما ذاتيا ، وترفض فى استمرار اقامة المستوطنات الاسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة ، كما يعنى موقف دول الرفض منع الفلسطينيين من الاشتراك فى المفاوضات التى تقرر مستقبلهم ، أما بالنسبة لسيناء فيتمثل الحلم الاكبر لجبهة الرفض فى استمرار احتلال اسرائيل لها ، بحيث يضاعف التخلف الاقتصادى والحضارى الذى تعانى منه مصر من جراء التعبئة شبه الدائمة والاستعداد الدائم لاحتمالات الحرب القائمة . ولاشك أن الهدف الاساسى لكل دولة من دول الرفض هو اقتناص زعامة العالم العربى من مصر عندما تجبرها الظروف على وضع انفها فى التراب . اى أن هذه الدول تظن أن الزعامة ليست سوى فرصة عابرة يمكن اقتناصها فى غفلة من الزمن ، وتجهل بذلك أو تتجاهل أو تتغابى عن أن للزعامة القومية شروطا حضارية وتاريخية وجغرافية وبشرية وسياسية واجتماعية .. الخ تضرب جذورها فى أعماق الماضى الذى شكلها وصاغها ، ولا تتوافر الا لمصر التى هيأها القدر لهذه التبعة .

من هنا كان الهراء الذى صدر عن مؤتمر دول الرفض الذى عقد اخيرا فى دمشق ، وهو الهراء الذى لا يستحق أن نتصدى له بالتعقيب والتحليل لانه لا يساوى ثمن الحبر الذى كتب به . **فقد اثبت زعماء دول الرفض بموقفهم هذا انهم يسبحون ضد التيار الحضارى الذى اكتسب فى المنطقة العربية دفعات قوية ومتجددة بعد نجاح مؤتمر كامب ديفيد . ويبدو اننا ادمنا فى عالمنا العربى السباحة ضد تيار الحضارة العالمية المعاصرة طلبا للمزيد من التخلف والانهيار . لكن الرئيس السادات الذى بكل هذا الهراء خلف ظهره وتطلع الى المستقبل بثقة وادراك لكل ابعاده الحضارية . وبهذه الروح خاض معركة كامب ديفيد الدبلوماسية لكى يخرج منها بكل الانجازات العربية التى ورد ذكرها فى مقررات المؤتمر .**

هذا على المستوى العربى القومى ، أما على المستوى المصرى الوطنى فانه يتحتم علينا الاستعداد بكل امكاناتنا البشرية للتحدى الحضارى الجديد بعد مرحلة كامب ديفيد . ذلك لان **تحدى السلام لا يقل فى خطورته باية حال من الاحوال عن تحدى الحرب .** بل انه يشكل القاعدة اذا كانت الحرب تمثل الاستثناء . ففى زمن الحرب أو الهدنة المسلحة تركز كل همنا على بناء الجندى المصرى وانشاء القاعدة العربية وصنع أو استيراد السلاح الجديد ، أما فى زمن السلم فتتدرع هيمنا وتتشعب بحيث لاتصبح المسألة متصورة على بناء الجندى بل تمتد لتشمل بناء الانسان المصرى بكل ما تحمله هذه المهمة من مشاق وصعاب جمة فالقضية ليست مجرد اقامة المصانع والمدارس والمستشفيات ، وانشاء الطرق ووسائل الاتصال المختلفة . فهذه كلها وغيرها تقع تحت بند المظاهر المادية للحضارة الانسانية ، وهذا لايعنى التقليل من شأن هذه المظاهر ، لكنها تأتى فى المرتبة التالية للمظاهر الروحية والفكرية التى تتمثل فى بناء الانسان المصرى .

اننا لانستطيع أن نعتبر السلام غاية فى حد ذاته ، بل وسيلة لابد أن تؤدى الى التقدم الحضارى الذى نرجوه لامتنا . ويجب أن نضع فى اذهاننا أن المعارك التى نذهب لخوضها بعد كامب ديفيد أخطر وأشرس من معركتنا العسكرية والسياسية مع اسرائيل . فمن هذه المعارك على سبيل المثال لا الحصر — معركة الامن الغذائى ، والثورة الادارية ، ومحو الامية ، والتأمين الصحى ، والممارسة الديمقراطية ...الخ ، وهى معارك تحتاج منا الى كل رصيدنا من الصبر الواعى ، والمنهج العلمى ، والتفكير المنطقى ، والتخطيط المدروس ، والحساب الاستراتيجى ، وخاصة أن هذه المعارك تأجلت كثيرا — لمدة تزيد عن ربع قرن . بسبب منع الاولوية المطلقة لمعركتنا العسكرية التى ازمنت عنا كالمرض الخبيث . واستطاع الرئيس السادات أن يستأصله جراحيا بمعركة اكتوبر ثم قضى عليه نهائيا العلاج العلمى المتأنى فى مرحلة مابعد بادرة السلام ومؤتمر كامب ديفيد .

من هنا كانت ضرورة محافظتنا على كل الابعاد القومية والفكرية والحضارية والانسانية للسادس من اكتوبر ، لانه بالنسبة لنا يعد مولد الحضارة المعاصرة الاصيلة فى نفس الوقت ، المعاصرة لانها استطاعت أن تهزم احدث اسلحة العصر فى استعباد الشعوب واستنزاف طاقاتها ، والاصيلة لانها امتداد حى لمضمون للحضارة المصرية والعربية القديمة . والسادس من اكتوبر هو التطبيق العملى لنظرية أرنولد توينبى فى مولد الحضارات ، وهى النظرية التى هاجمها كثير من المؤرخين المعاصرين المغرضين ، يرى توينبى أن مولد الحضارة لا يرجع الى تفوق جنسى بشرى معين ، أو الى عوامل مساعدة وظروف ملائمة بشكل غير عادى ، بل يعزى الى ظروف قاسية بشكل غير عادى ، وهذه الظروف تمثل تحديا مصيريا لمجتمع ما بحيث يتحتم عليه الاختيار بين البقاء أو الفناء ، بين الوجود والعدم . لذلك يتحفز هذا المجتمع ويحشد كل طاقاته لمواجهة هذا التحدى وخوض معركة البقاء الحضارى ، والمحافظة على كيانه الانسانى . فاذا ماانجح فى مواجهة التحدى ، ورجحت كفته فى صالحه فان هذا يمكن أن يؤدى الى خلق الحوافز القوى والمستمر لزيادة قدرته الخلاقة الى حد كبير ، وتنمية طاقاته الروحية والمادية بحيث يتبع هذا ما نطلق عليه « مولد الحضارة »

ولولا معركة اكتوبر المجيدة لما استطعنا أن نجعل قضيتنا مسألة عالمية ساخنة بل وملتهبة متفجرة ، ولما استطعنا تحرير سيناء حتى منطقة المضايق ، ولما استطاع الرئيس السادات أن يقوم بزيارته التاريخية المذهلة الى القدس ، ولما استطاع الرئيس كارتر أن يقوم بدوره كشريك كامل فى مباحثات كامب ديفيد التى انتهت بوضع الاطار الشامل لتحرير كل شبر من سيناء واجلاء قوات الاحتلال الاسرائيلى عنها تماما .

ان خصائص الشعب المصرى التى تمد جذورها حتى منابع حضارته الفرعونية قد منحته من الاصالة والصلابة والموهبة الخلاقة ، والقدرة على الابتكار وخلق الظروف المواتية مامكنه من قبول التحدى وقهر كل العقبات فى سبيله ، وسوف يحكى التاريخ أن السادس من اكتوبر العظيم كان خير اثبات عملى لنظرية توينبى فى مولد الحضارة وازدهارها ، ومع هذا يجب أن ندرك أن المحافظة على استمرار النجاح اصعب بكثير من تحقيق النجاح ذاته ، لذلك هرص السادات دائما على التأكيد بأن مهمة التعمير لا تقل فى الصعوبة عن مهمة التحرير ، بل ان التحرير هو مجرد مقدمة قصيرة لملحمة طويلة هى : ملحمة التعمير الحضارى .